

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربي بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم في التمهيد ؛ لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين واقواد العظماء والرؤساء المسودين ، وامتدح المثل العليا التي رآها عندهم ، ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة لكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يهر الطرف ويسحر اللب ؛ وقد رأى بأمر عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرك لسانه بالإعجاب . ولعل العربي تأثر أول الأمر بنظرة الفرس والروم إلى ملوكهم ، فقد كانت الأمتان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ إلى قصور الملوك والأداء ، وكان اللخميون في العراق والغساسنة في الشام يتأثرون ما وسعهم هاتين الأمتين بالمظاهر والمفاخر ، ويقلدون مراسمهم وأعيادهم تقليداً يثير إعجاب القادم من الصحراء ، ويسيل لعابه وبضطره إلى الحديث والفخر والمدح . ونسارع إلى القول بأن الإسلام سعى إلى نحو هذه النظرة ، فقام الخلفاء الراشدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطي ، وقلدهم بعض الخلفاء ، لكن أكثرهم عاد إلى النظرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبداهم في بعض الأحيان بالمظاهر والمراسم ، كما أحيا النظرة القبلية في السياسة والوراثة والحكم ؛ وقال الشعراء المداحون في الإشادة بهذا كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر . ففي الجاهلية قام النابغة الذبياني بزيارة الملوك في الشام والعراق ، فرأى صور الأبهة والترف والفخامة التي كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور